ذكرى بستالوتزي

١٨٤٦ — ١٨٢٧

في اليوم السابع عشر من فبراير الماضي احتفلت الاندية العلمية والمدارس الراقية بانقضاء مائة سنة على وفاة بستالوتزي المربي العظيم والاجتماعي الكبير والمؤسس الحقيقي لاحدث الآراء والمذاهب المعمول بها في ارقى المدارس في العالم اجمع

ولد هذا النابغة سنة ١٧٤٦ في مدينة (زورخ) من اعمال سويسرة وعاجلت أباهُ المنية وهو في الخامسة من عمره فنشأ في حجر امهِ وكانت صالحة تقية تعتبر بحق من فضليات النساء فأثرت في ولدها اثراً حميداً فنشأ كثير التفكير كثير التخيل شديد العطف على الفقراء والمساكين . ولم يكن في حداثتهِ من اذكياء التلاميذ في المدرسة ولكنهُ كان رقيق الطباع حلو المعاشرة فأحبهُ اخوانهُ واساتذتهُ حباً عظيماً . وبعد ان اتمَّ علومهُ الابتدائية دخل جامعة زورخ فوجد من اساتذتها اهتماماً جدياً بالبحث بحرية في شؤون الاصلاح السياسي والاجتماعي فصادف ذلك هوى من فؤادهِ واعتزم ان يعيش مخلصاً للحرية والعدالة باذلاً ذاته في حب الوطن وخدمة الفقراء والمساكين . وظهر كتاب جان جاك روسو في التربية بعنوان (إميل) فاكبَّ على قراءتهِ واخذَ بآرائهِ ومذاهبهِ . وبعد لأيٍ في تكييف مستقبلهِ ولى وجههُ شطر الفلاحة عالماً منهُ بأن الحرية وليدة الاعمال الزراعية والاحرار أجدر من غيرهم بان تكون منهم الحكومة الصالحة المنشودة ولذلك اشترى ضيعة بجوار زورخ ومكث يعمل فيها خمس سنوات متتالية غير انهُ لم يفلح كثيراً في الاعمال الزراعية وشغلتهُ تربية ابنهِ عن كل عمل آخر اذ جعل يربيهِ على مبادئ (روسو) واوصلتهُ تجاربهُ الى ان التربية الصحيحة لا تقتصر على قراءة الكتب وتحصيل المعارف وان اولاد الفقراء يستطيعون بالتمرين العملي في الزراعة والصناعة ان يكسبوا قوتهم وينالوا نصيبهم كاملاً من تثقيف العقل وتهذيب الخلق

وفتح في سنة ١٧٧٤ مدرسة صناعية لتعليم الفقراء والايتام وجعل يعولهم كما يعول الرجل اولادهُ فكان يطعمهم ويسقيهم ويكسوهم ويسكنهم منزلهُ واخذ يعلم الصبيان

تمثال بستالوزي في أيفردون

وصورة هذا التمثال موجودة في كل مدرسة سويسرية

متحف ابريل ١٩٢٧

إمام الصفحة ٤١٢

الزراعة والعناية بالحدائق . اما البنات فكن يشتغلن بالغزل والنسج والاعمال المنزلية واشغال الابرة وكان في اثناء الدرس يوجه انظارهم الى مظاهر الطبيعة و يثني فيهم ملكة الملاحظة و بذلك تعلموا شيئاً كثيراً قبل ان يتعلموا مبادئ القراءة والكتابة ولولا انهُ اراد التوسع مع قلة موارده لما اضطرَّ الى اغلاق هذه المدرسة التي نحا فيها نحواً جديداً مفيداً في التربية

واسترعى انتباه العلماء بمؤلفهِ العظيم المسمى (ليونارد وجرترود) الذي شرح فيهِ احوال القرويين وما يتقلبون فيهِ من بؤس وشقاء وجهل وانحطاط وكيف ان امراة فاضلة تدعى (جرترود) استطاعت ان تصلح حال زوجها وتحسن القيام بتربية اولادها وتبثَّ في الناس المبادئ الصالحة والاخلاق الفاضلة بحسن نفوذها وجميل تأثيرها . وفي سنة ١٧٩٨ عهد اليهِ ولاة الامور بتأسيس مدرسة في مدينة (ستنز) ولم يكد يعلن انهُ انشأ هذه المدرسة حتى دخل التلاميذ فيها افواجاً وضاقت بهم على سعتها فاقبل على العمل بغيرة وحمية منقطعة النظير وقال يصف اعمالهُ فيها « كنت الازم الاطفال من الصباح الى المساء ولم ادع فرصة يستعان بها على انماء جسومهم وعقولهم الاَّ انتهزتها ، وما اعتمدت قط في تعليمهم وتهذيبهم على احد غيري . كانت يدي في ايديهم في كل عمل ، وبساتي تصحب بساتهم في كل حين . كنا نقتسم الطعام والشراب ونمشي معاً في الحقول والمزارع نستنشق طلق الهواء . لم يكن حولي اسرة ولا اصدقاء ولا خدم فكانوا اسرتي واصدقائي وليس لي احد سواهم . كنت احسُّ بالصحة والعافية ما داموا في صحة وعافية ، وكنت اعلمهم واسليهم واقف بجانبهم ان نزل بهم مرض او اصابهم داء . اذا ناموا نمت وكنت آخر من ينام واول من يستيقظ »

واول ما عُني بهِ (بستالوتزي) في هذه المدرسة ان يجعل اعتماد تلاميذه على الملاحظة والتجارب العملية في العلوم الرياضية والطبيعية بل والدين والاخلاق ايضاً فقد كان يتبع فيها طريقة حميدة تقضي بمراقبة الحوادث حين حدوثها فيشرحها لهم و يستعين بها على تعليمهم قيمة الاعتماد على النفس والاحسان الى المساكين وشكر من اسدى معروفاً . ثم اضطرَّ ان يخلي المدرسة لجرحى الفرنسيين فوقف هذا العمل المفيد، و بلغت آراؤهُ الغاية من النضوج في الفترة التي اختاره بعضهم فيها ليكون معلماً في مدرسة (برجورف) اذا وفق فيها الى ابتداع طرق في التدريس تشوق التلاميذ وتسترعي انتباههم وجوهرها الاعتماد على حواس الاطفال ومشاهدة مظاهر الطبيعة بملاحظتها واستقراء نواميسها ولم

يسلك هذه الطريقة في درس دون آخر بل كانت طريقة الملاحظة اساساً عندهُ لتعليم اللغة ايضاً اذا كان يوجه انظار التلاميذ الى ما حولهم من الاشياء و يأمرهم بالفحص عن اشكالها واحجامها وانواعها ومواقعها ثم يكلفهم بالتعبير عنها بجمل متدرجة في الصعوبة متنوعة في الاساليب وكان ينطق بجملة من الجمل و يأمر التلاميذ بمحاكاته فيها . ويستعين في تعليم الحساب بالخرز والبندق والحصى فيفهم التلاميذ بها معاني الاعداد وكان يتجنب تعليم الهندسة بحفظ التعريفات وانما يأمر التلاميذ برسم الخطوط والزوايا بأنواعها

وقد قدر ولاة الامور في المدرسة عملهُ هذا حق قدرهِ فقالوا « لقد أرانا بستالوتزي القوى العظيمة الكامنة في طبيعة الطفل وبيّن لنا الطرق التي يجب ان نسلكها لاستثارة هذه القوى وانمائها . وان النجاح الباهر الذي احرزهُ مع تلاميذهِ على صغر أعمارهم واختلاف مداركهم ليدلُّ دلالة واضحة على ان كل طفل لهُ عمل في الحياة يضطلع بهِ وينصرف لهُ اذا استطاع المعلم ان يوفق مداركهُ ، و يستثير مواهبهُ على مقتضى القوانين الثابتة في علم النفس »

وآخر ما اختتم بهِ حياتهُ في انشاء المدارس انهُ انشأ مدرسة في سنة ١٨٠٢ على بحيرة (نيوشتا) دعاها مدرسة (أبفردون) وبلغ فيها الحد الاقصى من ذيوع الشهرة و بعد الصيت فأقبل التلاميذ على مدرستهِ من كل قطر واخذت وفود الفلاسفة والامراء والعلماء والادباء تتردد عليها لدرس مبادئهِ وآرائهِ . واتسع نطاق معهدهِ اتساعاً عظيماً واصبح فضلاً عن قسم الدكتور يحتوي على قسم كبير للبنات وفرقة للصم والبكم فشحذ ذلك من عزمهِ وهمتهِ وزادهُ رغبة في تهذيب آرائهِ وافكارهِ واخذ ينظم طرائق التعليم التي اتبعها في تدريس الحساب والجغرافية والتاريخ الطبيعي والانشاء. ولما مرت عشرون سنة ودب دبيب التنافس والتحاسد بين المعلمين الذين اتخذهم عوناً اضطر ان يغلق ابواب معهدهِ بعد ان كان نهراساً يستضيءُ بهِ المعلمون في كل مكان . ومات بعد ذلك بثلاث سنوات اي في سنة ١٨٢٧ وقد لخص احد تلاميذهِ مبادئهُ وآراءهُ وطرقهُ في التدريس فيما يأتي :

(١) الملاحظة اساس التربية والتعليم (٢) يجب ان يرتبط درس اللغة بالملاحظة واستعمال الحواس (٣) وقت التعليم غير وقت الحكم والنقد فلا مناقشة ولا نقد من التلميذ اثناء الدرس (٤) يجب ان يكون الانتقال من الاسهل الى الاصعب وحسب الحاجة

(٥) يجب الا ينتقل التلميذ من احدى مسائل الدرس الى ما يليها ، حتى يتثبت من الاولى و يجيد فهمها كل الاجادة (٦) يجب ان يعامل المعلم تلاميذهُ بأدب واحترام (٧) ليس الغرض من التربية الابتدائية حشو عقول الاطفال بحقائق العلوم والفنون انما الغرض منها انماء القوى العقلية وايقاظ المواهب الكامنة (٨) يجب ان ينتج العلم قوة وان ينتج التعلم مهارة (٩) يجب ان تكون المحبة اساساً للرابطة بين المعلم والمتعلم ، ومحوراً يدور حولهُ النظام المدرسي (١٠) يجب الا يكون التعلم غرضاً اصلياً فانما هو وسيلة للغاية السامية من التهذيب (١١) علاقة الام بولدها هي اساس التهذيب

على ان ما تقدم ذكرهُ لا يمكن ان يكون تلخيصاً شافياً لمبادئ « بستالوتزي » العظيم وانما حسبنا ان نشير الى أن اعتبارهُ الطفل كائناً حياً نامياً متطوراً في عواطفهِ ومشاعرهِ وعقلهِ واخلاقهِ وان التهذيب يجب ان يتناول ترقية المتعلم من الوجهة الادبية والجسمانية والعقلية في آن واحد وان تهذيب الاحداث فرض واجب على الامة والحكومة ودين في عنق ولاة الامور — كل هذه آراء استحدثها بستالوتزي وروَّجها بالكتابة والعمل حتى صارت من الامور الشائعة المعمول بها بعد ان كانت لعهدهِ امراً غريباً غير مألوف

على ان علماء التربية ومجربي الاساتذة والمدرسين العمليين ينعون على طرقهِ عيوباً ويأخذون عليها الغلطات والهفوات ويزيفون كثيراً من الطرق التفصيلية التي قررها لتدريس العلوم والفنون والمواد ولكن مهما قيل في طرائقهِ واساليبهِ فهو صاحب الفضل في وضع الاسس التي يقوم عليها تدريس الجغرافية اذ جعل المشاهدة خارج الجدران اساساً لها ، وتدريس الحساب اذ جعل اساسهُ لمس اشياء معدودة مشاهدة يقدرها التلميذ ويحصها وينظرها على مختلف وجوهها ، وتدريس اللغة اذ جعل اساس تعليمها المشاهدة والرؤية ثم التسمية ، وتدريس علم الاخلاق اذ جعل اساس تعليمهِ الحوادث الواقعة دون الحفظ والتلقين

وقد سبقت المانيا غيرها الى الانتفاع بمبادئ (بستالوتزي) فكان (فخت) لمبادئهِ مروجاً وكان فروبل لهُ تلميذاً مخلصاً وكان (هربارت) اول من تصدى لتقدم بعلم وادب وقد صارت اراؤهُ في مدارس العالم المتمدن بسرعة الضوء وافادت فائدة جلى وانتقلت الى الشرق في جملة ما تملهُ من الغرب فكان حقاً علينا ان نحتفل بذكرى وفاتهِ مع العالم المتمدن

حسين لبيب
ناظر مدرسة النحاسين